الصورة الكنائية في المدح النبوي عند حسان بن ثابت
بين البلاغة و الإبلاغية

د .حميد قبايلي

أستاذ محاضر "أ" بقسم الأدب واللغة العربية

كلية والآداب اللغات

جامعة عباس لغرور خنشلة

رقم الهاتف:0659081813

البريد الالكتروني:hamidkebaili1961@gmail.com

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة مفهوم الكناية في الدرس النقدي والبلاغي عند نقادنا – قدامى ومحدثين– وقبل ذلك تشير الدراسة إلى مختلف الدلالات اللغوية والاصطلاحية لمفهوم الكناية ثم تعرج على آراء النقاد المتباينة حول المصطلح، وتخلص في الختام إلى جماليات الصورة الكنائية من خلال الدراسة التطبيقية في شعر المدح النبوي عند عَلَم من أعلامه ورواده في صدر الإسلام وهو حسان بن ثابت الأنصاري.

The canonical image in the prophetic praise of Hassan ibn Thabit Between rhetoric and reporting

Research Summary:

This study deals with the concept of metaphor in the critical and critical lesson of Arab critics – old and modern – ones , and before that the study refers to the various linguistic and theological meanings of the concept of metaphor and then deal with opinions of different critics on the term, to sum up the aesthetics side of this phenomenon through the a practical study about the poetry of praise Prophet in one of its pioneers in the early era of Islam, Hassan Bin Thabet Al Ansari.

الكلمات المفاتيح: الصورة، الكنائية، المدح النبوي، عند حسان بن ثابت، البلاغة ، الإبلاغية.

مقدمة:

تُعدُّ الكناية من أهم الأوجه البيانية التي يلجأ إليها الأدباء والشعراء والمبدعون عبر كل العصور. وقد أولاها النقاد والبلاغيون أهمية متميزة , فلا تكاد آثارهم البلاغية و النقدية تخلو من الإشارة إلى سحر الكناية وجمال بيانها.

فما سر لجوء الأدباء إلى هذا النوع من التصوير ؟ وما الدافع إلى ذلك الاهتمام العظيم من قبل جهابذة وعمالقة البلاغة ؟

وللوقوف عند حدود مفهوم المصطلح وتجلية دلالاته وتوضيح معانيه ينبغي أولا استعراض المفهوم المعجمي ثم المفهوم الاصطلاحي للفظ الكناية لنرفع اللبس عن الكثير من إيحاءاته وتجلياته، ونبدأ بـ

أولا – مفهوم الكناية عموما:

إنَّ التعبير الذي يتَّخذ شكل الصورة الكنائية هو بحدِّ ذاته تعبير بليغ وأجمل من التَّعبير المباشر ، وإنَّ شكل الجملة الذي تتَّخذه الكناية في التَّعبير يجعل المعنى الثاني (المُكنَّى عنه) مختفيا وراء صورة لا نصل إليه إلاَّ من خلالها. وتحتفظ الكناية ، بالإضافة إلى الأوجه البلاغية الأخرى ، بقيمة خاصة نظرا لما تتمتع به من خصوصيات مميزة.

لقد مرَّت بنا الصورة الاستعارية ، فأوضحنا ماهيتها ومختلف أقسامها ، ودورها في إبراز المعنى في صورة مستجدة طريفة. ومن الواجب إذا أنْ نقف عند الكناية ونحاول أن نبيّن حدَّها ونعدِّد أقسامها ونبرز دورها في إبراز المعنى وتصويره في قوالب تعبيرية جذَّابة.

1 – الكناية لغة:

هي مصدر كنَّى ، يَكْنُو ، أو كَنَى يَكْنِي ، وكَنَّيتُ عن كذا بكذا ، إذا تركت التصريح به ، فالكناية مشتقَّة المعنى من التَّستُّر ، وبذلك تدخل الكُنية في الكناية ، فقولنا : " أبو عبد الرحمن " مثلا ، فيه إخفاء للاسم الحقيقي ، قد يكون مثلا : عبد الله أو إبراهيم... .

وجاء في (القاموس المحيط) " للفيروز أبادي ": « **الكناية مصدر لفعل (كنيت) أو (كنوت) ، تقول : كنيت بكذا عن كذا ... تكلمت بما يستدل عليه ، أو تكلمت بشيء أردت غيره** »(1)

2– الكناية اصطلاحا:

جاء في (المعجم الأدبي) في تعريف الكناية اصطلاحا : « **الكناية لفظ يُراد به ما يستلزمه ذلك اللَّفظ ، ويُستنتج منه، مع جواز إرادة المعنى الظاهر نفسه** »(2)

وبإمكاني أن أورد تعريفا للكناية ، أزعم أنه يقترب من التعريفات المختلفة لفظا ، المتَّفقة معنى التي ذكرها علماء البلاغة القدماء ، واتفق عليها المحدثون:

فالكناية لفظ أُطلق ، وأريد به لازم معناه ، مع جواز إرادة ذلك المعنى. وسيتَّضح معناها أكثر حين أتعرَّض لحدِّها عند البلاغيين القدماء والمحدثين.

ثانيا: مفهوم الكناية عند البلاغيين القدماء :

لعلماء البلاغة القدامى آراء كثيرة ومتنوعة حول مفهوم الكناية بدءا بقدامة بن جعفر "ت 337هـ" مرورا بأبي هلال العسكري "ت 395هـ" وابن رشيق " (المتوفى عام 463 هـ) وعبد القاهر الجرجاني " (المتوفى عام 471هـ) و السكَّاكي " (المتوفى عام 626 هـ) و" ابن الأثير" (المتوفى عام 737 هـ) و " القزويني " (المتوفي عام 739 هـ). وليس بمقدورنا أن نستعرض كل آراء هؤلاء لكثرتها وتشعبها وسنكتفي برأي عالمين مشهورين من رواد البلاغة العربية القديمة رغبة منا في تجلية المفهوم، وزيادة في كشف مضامينه وهما ابن رشيق وعبدالقاهر الجرجاني:

أ– " ابن رشيق " (المتوفى عام 463 هـ):

لم يتحدَّث ابن رشيق عن مصطلح الكناية ، بل تحدث عن الإشارة وعن التَّتبيع. فالإشارة عند " ابن رشيق ": « **من غرائب الشعر ومُلَحه ، فهي بلاغة عجيبة تدل على بُعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها إلاَّ الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر ، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح ، يُعرف مُجملا ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه** ».(3)

فمن ذلك قول : " زهير بن أبي سلمى ":

فَـــــإِنّي لَـــــوْ لَقِيْتُـــــكَ وَاتَّجَهْنَـــــا لَكَـــــانَ لِكُـــــلِّ مُنْكِـــــرَةٍ كِفَـــــاءُ

فقد أشار له بقبيح ما كان يصنع لو لقيه ، وهذا أفضل بيت في الإشارة عند " قدامة ". وقد سبقه إلى الحديث عن الإشارة " أبو هلال العسكري " في كتابه (الصناعتين). « **الإشارة أن يكون اللفظ القليل مشارا به إلى معان كثيرة بإيماء إليها ،**

ولمحة تدل عليها وذلك كقوله (Y): [**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**] (4) **وقول الناس : لو رأيت عليًّا بين الصفين ، فيه حذف وإشارة إلى معان كثيرة. »**(5)

والجديد عند " ابن رشيق " أنه ذكر أنواع الإشارة ، ومثَّل لكل نوع ، فقال : ومن أنواع الإشارة التفخيم والإيماء ، فأما التفخيم كقوله (Y):[**الْقَارِعَةُ , مَا الْقَارِعَةُ**] (6) وأما الإيماء كقول الله (Y):[... **فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**] (7) فأومأ إليه وترك التفسير معه.

ومن أنواعها (أي أنواع الإشارة) التَّعريض : كقول " كعب بن زهير " لرسول الله (ε)

فِــــي فِتْيَـــةٍ مِـــنْ قُـــرَيْشٍ قَـــالَ قَـــائِلِهُمْ بِـــــبَطْنِ مَكَّـــــةٍ لَمَّـــــا أَسْــــلَمُوا زُولُـــــوا

فعرَّض "بعمر بن الخطاب" ، وقيل:" بأبي بكر" رضي الله عنهما وقيل برسول الله (ε) تعريض مدح.

ومن أنواعها التَّلويح ، كقول: " قيس بن الملوح العامري ":

لَقَـــدْ كُنْـــتُ أَعْلُـــو حُـــبَّ لَيْلَـــى فَلَـــمْ يَـــزَلْ بِـــيَّ الـــنَّقْضُ وَالإِبْـــرَامُ حَتَّـــى عَلاَنِيَـــا

فلوَّح بالصِّحة والكتمان ثم بالسَّقم والاشتهار تلويحا عجيبا. (8)

ومعنى التَّتبيع عند " ابن رشيق " :« **من أنواع الإشارة : التَّتبيع ، وقوم يُسمُّونه التَّجاوز ، وهو أن يريد الشاعر ذِكر الشيء فيتجاوزه ، ويذكر ما يتبعه في الصفة ، وينوب عنه في الدلالة عليه ، وأول من أشار إلى ذلك " امرؤ القيس" يصف امرأة :**

وَيُضْحِي فَتِيتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا نَئُومُ الضُّحَى لَمْ تَنتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

فقوله : يضحي فتيت المسك ، تتبيع ، وقوله نئوم الضحى : تتبيع ثان ، وقوله : لم تنتطق عن تفضل تتبيع ثالث ، وإنما أراد أن يصفها بالترفُّه والنعمة وقلة الامتهان في الخدمة ، وأنها شريفة مكفية المؤونة فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة ».(9)

ب-" عبد القاهر الجرجاني " (المتوفى عام 471هـ):

لقد بدأ مفهوم الكناية يتبلور ، ويبدو أكثر وضوحا مع شيخ علماء البلاغة وعميدهم "عبد القاهرالجرجاني" الذي ذهب إلى أن الكناية هي:« **أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني. فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيئ إلى معنى هو تاليه ورِدفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم : (هو طويل النجاد) يريدون طويل القامة. (وكثير رماد القِدر) يعنون كثير القِرى ، وفي المرأة : (نؤوم الضحى) والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها. فقد أرادوا في هذا كله – كما ترى – معنى لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود ، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ؟ وإذا كثُر القِرى، كثُر رماد القدر ؟ وإذا كانت المرأة مترفة ، لَها ما يكفيها أمرها ، ردِف ذلك أن تنام إلى الضحى ؟ »**(10)

ومن هذا التعريف ، نلمس أنَّ الكناية تحمَل معنى الخفاء ، وشيئا من الغموض الذي يدعو المتلقي إلى إعمال الفكر والعقل حتى يصل لعمق الصورة.

وفي الكناية مدلولان : مدلول أول: وهو المعنى القريب ، وغالبا لا يكون المقصود ، ومدلول ثان: بعيد المعنى وغالبا ما يكون هو المقصود.

ومن أمثلة ذلك قول " عمر بن أبي ربيعة ":

وَقَالَتْ،وَعَضَّـــــــتْ بِالْبَنَـــــــانِ: فَضَـــــــحْتَنِي وَأَنْـــــتَ امْـــــرُؤٌ مَيْسُـــــورٌ أَمْـــــرُكَ أَعْسَـــــرُ

فالكناية في هذا البيت هي في قوله: (عضت بالبنان) كناية عن الخوف فعلا، وهو المدلول الأول: أي المعنى القريب الذي لم يقصده الشاعر ، ولها مدلول ثان : ملازم للأول ، بعيد وهو المقصود فإنَّ. (عض البنان) عادة ما يكون عند الهلع والأسف.

ويرى " عبد القادر الجرجاني" :« **أنَّ اللَّفظ في الكناية يدل على معنى ، وأن هذا المعنى يدل على المعنى المراد من الكناية ، فهي إذا من دلالة المعاني على المعاني** ».[11]

كما يؤكد " عبد القاهر " : « **أنَّ من شروط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلا على المعنى الثاني وسيطا بينك وبينه متمكِّنا في دلالته ، مستقلا بواسطته ، يُسفر بينك وبينه أحسن سفارة ، ويُشير إليك أبين إشارة ، حتى يُخيَّل إليك أنَّك فهمته من حاقِّ اللَّفظ** »[12].

ويورد " عبد القاهر " مثالا على ذلك ، قول " ابن هرمة ":

لاَ أُمْتِـــــعُ الْعُـــــودَ بِالْفِصَـــــالِ وَلاَ   أَبْتَـــــاعُ إِلاَّ قَرِيبَـــــةُ الأَجَـــــلِ

فالشاعر لا يترك الفصيل لأمِّه تستمتع به ، بل يقدِّمه للضيفان. وهذا المعنى يوصلنا بيُسر إلى أنَّ هذا الرجل الكريم يذبح لطالبي قِراه ، ويشير كذلك إلى أنه لا يشتري إلاَّ النَّاقة قريبة الأجل لأنه يذبحها ، ويُقدِّمها طعاما لضيوفه. فالمعنى الأول: دليل على المعنى الثاني ، وهو: (معنى المعنى) المعقول من اللفظ ودلالته ، وهذا يكون كناية عن الصفة كما يُسمِّيه " عبد القاهر الجرجاني". ويُبدي " عبد القاهر " إعجابه بهذا اللَّون، ويُبيِّن أن له مزيَّة وفضلا وحسنا بقوله : « **وأنك إذا أردت شيئا ولم تصرح به ، وجئت إليه عن طريق التعريض والكناية والرمز والإشارة ، كان له من الفضل ومن الحسن والمزية ما لا يُقل ولا يُجهل موضع الفضيلة فيه. ومن الشعراء الذين توسلوا ذلك: " زياد الأعجم" حين قال :**

إِنَّ السَّـــــمَاحَةَ وَالْمُـــــرُوءَةَ وَالنَّـــــدَى   فِـــي قُبَّـــةٍ ضُـــرِبَتْ عَلَـــى ابْـــنِ الْحَشْـــرَجِ

فالشاعر أراد أن يثبت بعض الصفات للممدوح ، فترك التصريح بها مباشرة ، وعدل إلى التلويح والكناية ، فجعل كون هذه الصفات في القبة المضروبة عليه ، عبارة عن كونها فيه ، فخرج كلامه بهذه الفخامة والجزالة بحيث أنَّــه لو أسقط هذه الواسطة من الكلام ، ما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذَجا »[13].

ويضيف " عبد القاهر الجرجاني" : « **وممَّا هو إثبات للصفة على طريق الكناية قولهم : المجد بين ثوبيه ، والكرم في بُرديه ، وذلك أنَّ قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبسه ، كما توصل " زياد الأعجم " إلى إثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشرج** »[14].

والكناية عند عبد القاهر نوعان : كناية عن صفة ، وكناية عن إثبات الصفة ، وتتفرَّع الأنواع الأخرى من هذين النوعين.

والملاحظ أنَّ " عبد القاهر " قد عالج مختلف الأوجه البيانية كالكناية والتشبيه والاستعارة والتمثيل متوخيا ارتباطها بالنظم والمعنى ، وكذلك ارتباطها بالسياق ، وصَوغها صياغة فنية يتمكن الذوق من استكشاف أسرارها. فالكناية عند " عبد القاهر ": من وسائل تصوير المعنى فنيا ، وهي في السياق مع غيرها من العناصر الأخرى تؤدي إلى الكشف عن محاسن وجمال يملأ الطرف ، ودقائق تعجز الوصف ، وسِحر يُضفي على الصورة البيانية كثيرا من الإمتاع والجمال ، ويتحقق كل هذا حين تؤدي الكناية دوري الرَّمز والتلويح أو الإشارة عن المعنى الأول.

ثالثا: مفهوم الكناية عند المحدثين :

إذا كانت الصورة التشبيهية تضع بين يدي قارئها أو سامعها معطياتها مباشرة ، بلا تعمية و لا غموض وترتكز في إغناء أبعادها على الألوان و المحسوسات ، وكذا الصورة الاستعارية التي تعتمد على الفواصل اللغوية، وبالتالي نجد إقبال

الشعراء و الأدباء على هذين الوجهين البلاغين عظيما و متسع الارجاء قديما وحديثا. « **فإنَّ الصورة الكنائية تقوم على نوع آخر من الحيوية التصورية ، فهناك أولا: المعنى أو الدلالة المباشرة الحقيقية ثم يصل القارىء أو السامع إلى (معنى المعنى) وهي العلاقة الأعمق فيما يصل إلى التجربة الشعورية و الموقف** »(15) كما يقول " فايز الداية ".

وقد كان "عبد القاهر الجرجاني "السبَّاق في فهم تشكيل الصورة الكنائية وباقي العناصر البيانية. وعنه أخذ البلاغيون ثم أكدوا مفهومه ، ونقلوا شواهده أحيانا و لم يتجاوزوها. يقول " عبد القاهر" « **أولا ترى أنك إذا قلت : هو كثير رماد القدر أو قلت طويل النجاد ، أو قلت في المرأة نِؤوم ، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ. ولكن يدل على معناه الذي يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى ، - على سبيل الاستدلال - معنى ثانيا هو غرضك ، كمعرفتك من كثير رماد القدر (أنه مضياف) ومن طويل النجاد (أنه طويل القامة)، ومن نؤم الضحى في المرأة (أنها مترفة مخدومة) لها من يكيفها أمرها**»(16)

إنّ الكناية عند المحدثين هي وسيلة للتعبير بالصورة ، حتى و إن كانت هذه الصورة الكنائية تحمل في طياتها معنى الستر و الخفاء ، ولكنه خفاء بنَّاء يثير في الملتقى نشوة الاستزادة عن طريق إعمال العقل للوصول إلى عمق الصورة. وفي هذا المجال يقول: الدكتور " بدوي طبانة " : « **الوضوح المنشود في الأدب ليس هو ذلك الوضوح الذي يمكن أن يؤدي بالكلام لأن يوصف بالابتذال ، بأن يجعل الكلام في متناول جميع الناس من حيث القدرة عليه ، ومن حيث القدرة التي تميزه من صنوف التعبير ومحاولة الاخفاء – فيما نحن فيه – إنما هي من مظاهر تلك الفنية لان الأديب استطاع أن يتحاشى مالا ينبغي أن يكون من مثله** »(17)

ويضيف قائلا : « وحينئذ يكون الإخفاء والستر حسنة من حسنات الكلام ، أو حسنة من حسنات الأديب »(18).

ومحاولة الإخفاء عبر الكناية عند " غازي يموت " : « **هو مظهر من مظاهر الفن ، ووسيلة للفنان يتحاشى بواسطتها التصريح بما تمجه الأذواق ، وتفرضه الطباع ، وكثيرا ما يؤدي هذا الأسلوب (الخفاء في الكناية) إلى الغموض الذي يزيد الكلام إيحاء ، ويجعله ألطف وأجمل ، ويكسب المتأمل متعة أعمق** »(19)

ودرجة الخفاء في الصورة الكنائية متفاوتة من كلام إلى آخر ، فمنها: ما يُدرك بِيُسر و منها ما يحتاج فهمه إلى جهد كبير ، ومنها ما يُستغلق على الأفهام فيصل إلى درجة (الرمز) أو (المعمى) الذي كان منتشرا في العصر العباسي. ومن أمثلته ما ينقله " الرافعي " في كتابه: (تاريخ آداب العرب) « **عن رجل يُدعى بأبي القاسم القطان ، أنه دخل على الوزير "الذينبي" يُهنئه بالوزارة فدعا له، وأظهر الفرح ورقص، فلما خرج. قال الوزير لبعض أهل سِرِّه : قبَّح الله هذا الشيخ أنه يشير برقصه إلى قولهم ارقص للقرد في دولته»** (20).

وتبدو الصورة الكنائية صعبة المنال عند التأمل في جزئياتها ، بالرغم ما يخيل إلينا أحيانا من بساطتها ويعلل"فايز الداية" ذلك: « **بأنها تتلبس في الكلام و التركيب اللغوي ، ويظل السياق هو الكفيل بإضاءتها بشكل أساس ، لا كما عهدنا التشبيه بارزا ، ولاكما هي الاستعارة مفاجئة وظاهرة الكيان الدلالي** »(21) .

وتبقي الكناية – وبخاصة الكناية عن النسبة – مجالا واسعا عند المحدثين للانحراف في التركيب.«**لأنَّ الانحراف في التعبير يؤدي بالضرورة عن التفتيش عن دلالة جديدة تُزيل هذا الانحراف** » (22)، على حد تعبير الدكتور " صبحي البستاني ". الذي يضيف في موضع آخر :

« **ويبقي ستر المعنى في الكناية الميزة الغالبة ، إذ يستتر المعنى داخل صدفة ، فلا نصل إليه إلاَّ بعد شقِّها ، وكل تستُّر هو ميزة فنية طالما أن كل تصريح أو وضوح هو ميزة علمية ، وبهذا المعنى يقول "ملارميه" :(أن نُسمي الاسم**

باسمه يعني ذلك حذف ثلاثة أرباع نشوة القصيدة ، هذه النشوة التي تقوم على غِبطة الاكتشاف شيئا فشيئا ، والإيحاء ، وهذا هو الحلم كله)» [23]

لقد حرصت البلاغة القديمة على تقسيم الكناية باعتبار المكنى عنه إلى ثلاثة أقسام :

أ – الكناية عن الصفة : وهي عندما يكون المكنى عنه (أو المدلول الثاني) أو ما يسميه القدماء بطلب نفس الصفة. وفي هذا القسم تكون الصفة هي المخفية المحتجبة المُتوارية.

ب – الكناية عن الموصوف : وهي عندما يكون المكنى عنه اسما موصوفا , أو ما يسميه القدماء طلب نفس الموصوف وفي هذا القسم يكون الموصوف هو المخفي المتواري والمحتجب.

ج – الكناية عن النسبة : وفي هذا النوع من الكناية عدول بالكلام عن التعبير المباشر , وذلك عن طريق إثبات الصفة لشيء يتعلق بمن نريد إثباتها له , وهي عند القدماء طلب النسبة.

ومن أمثلة ذلك ما ورد عن" عبد القاهر الجرجاني " , وقد مرَّ بنا : (المجد بين ثوبيه) و(الكرم بين برديه), فبدل أن نثبت المجد للممدوح مباشرة أثبتناه للثوب الذي يلبسه , والثوب منسوب إلى هذا الممدوح وما يقال عن المجد يقال كذلك عن الكرم.

رابعا: الصورة الكنائية في المدحة النبوية عند حسّان بن ثابت :

لقد أسهب حسّان بن ثابت كعادة الشعراء القدماء في توظيف الصُورة الكنائية في شعرالمدح النبوي.

وقد أحصيت ما مجموعه: ثمانٍ وثلاثين صورة بين كناية عن صفة وكناية عن موصوف.

والملاحظ أن حسّان بن ثابت لم يوظف الكناية عن النسبة بالرغم من أهميتها. وتبقى هي القسم الوحيد في الكناية – عند المحدثين – الذي يظهر فيه الانحراف في التركيب كما مرَّ بنا.

ولعلَّ السرَّ في إسهاب حسّان بن ثابت في استعمال الصورة الكنائية بنوعيها (كناية عن الصفة وعن الموصوف) لما لها من دور في تجسيد المعنى وتقريبه من ذهن السامع وتسليط الضوء عليه ليزداد وضوحا وترسيخا في الأذهان.

1 – الكناية عن الصفة :

الكناية عن الصفة وهي الأكثر توظيفا عند حسّان بن ثابت في المدحة النبوية ، إذ أحصيت ما مجموعه ثمان وعشرين كناية عن صفة. وفي المقابل لم يوظف سوى عشر صور كنائية عن موصوف.

و المتأمل في الصورة الكنائية في المدحة النبوية عند حسّان بن ثابت يجدها من المجالات التي أبدع فيها وصال وجال , فالكناية صورة تبدو محبَّبة ومبجَّلة عند الشاعر يمنحها من حسّه ووجدانه ما يعطيها القدر الكبير من التأثير.

فإذا كان التَّركيز في الصورة الاستعارية على عملية المشابهة بين المشبه والمشَبَّه به, أو بالأحرى المستعارله والمستعار منه. فإن التركيز في الصورة الكنائية يكون على عملية **المجاورة** بين المدلولين , الأول والثاني من حيث الانتقال من الحسي إلى المجرد أو استعمال المجسَّد للدلالة على الأخلاقي وهكذا ...

وخلاصة القول أن آلية الكناية تقوم على الانتقال من المدلول الأول إلى المدلول الثاني ولإيضاح وشرح هذه العلاقة نذكر قول حسّان بن ثابت في مقدمة طللية يصف فيها منازل (بني جفنة) من ملوك (الغساسنة) الذين امتدحهم الشاعر في الجاهلية وأحسن مدحهم فأكرموه وبالغوا في إكرامه لذلك.

دَيــــارٌ مـــــنْ بَنِــــي الحَسْــــحَاسِ قَفْـــرٌ تُعَفِّيهَــــــا الـــــــرَّوَامِسُ وَالسَّــــــمَاءُ

وَكَانَــــــتْ لا يَـــــزَالُ بِهَـــــا أَنِـــــيسٌ خِــــلالَ مُرُوجِهَــــا نَعَـــــمٌ وَشَـــــاء [24]

فالشاعر يصور لنا حال هذه الديار, وكيف عفَّتها الرياح والأمطار وطمست معالمها , والحال أنها كانت لا تخلو من

أنيس ومروج كانت تجوس خلالها النعم والشاء.

دال ⟵ **مدلول أول** ⟵ **مدلول ثاني**

حال النعم والشاء وهي تجوس في المروج   حركة النعم والشاء   رغد العيش والرفاه

و انطلاقا من هذا المثال التوضيحي يمكن التوقف عند النقاط التالية :

– إنَّ العلاقات التي تربط بين الألفاظ في الشاهد الشعري ، هي علاقات معيارية (حقيقية) إذ أننا لا نقع على لاملاءمة تؤدي إلى انحراف يفرض علينا إزالته بالعودة إلى معنى آخر أو دلالة ثانية كما كان الحال في الصورة الإستعارية.

– فالأخذ بالدلالات الحقيقية و الاصطلاحية لا يفي بالمراد , وتبقى هذه الدلالات قاصرة عن إعطاء التعبير حقه , فماذا يفيدنا في الكلام إذا أخذنا معنى حركة النعم والشاء في المروج ؟ بالرغم من إمكانية الأخذ به, وماذا يفيد البيت إذا اقتصرت الدلالة على المعنى الحقيقي؟

وبالتالي فإن هناك دلالة ثانية مخفية ومستورة يرمي إليها الشاعر ، متى وصلنا إليها استقام المعنى.

هناك إذًا عملية انتقال في المعنى ينبغي أن تحدث بين المدلول الأول والمدلول الثاني , فالصورة الحسية في المدلول الأول والتي تظهر حركة النعم والشاء في المروج جائية وذاهبة أدت إلى مدلول ثان معنوي هو رغد العيش والرفاه والترف الذي كان في الديار قبل أن يحل بها ما حل.

والعلاقة بين المدلول الأول والثاني تقوم على المجاورة حيث الانتقال من الحسي إلى المجرد. ولا تقوم على المشابهة. كما مر بنا في الصورة الاستعارية.

ومن أمثلة الكناية عن الصفة في المدحة النبوية قول حسّان يصف الخمرة التي شبّه بها رضاب محبوبته شعثاء :

لِشَعْثَاءَ الّتِي قَدْ تَيَّمَتْهُ فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعَمَ غَضٍّ مِنَ التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ الجَنَاءُ

إِذَا مَا الأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ[25]

والشاهد في قول الشاعر: (فهن لطيب الراح الفداء) وذلك في تفضيل الراح على سائر الأشربة , وهي **كناية عن صفة.**

ثم يصف حسّان ،خيول الفرسان من الصحابة في مجاراتها للأعنة في اللين وسرعة الانقياد فيقول:

يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ[26]

فالخيول مشتاقة للحرب , سلسة القيادة , ماضية لا تلوي على شيء , فهي تعارض الأعنة في الجذب لقوة نفوسها وقوة رؤوسها , وهذا على سبيل **الكناية عن الصفة** . فالشاعر لا يريد المعنى الحسي القريب من مباراة الخيول لأعنتها ، وإنما يريد صفة في هذه الخيول , وهي اللين وسرعة الانقياد. وتبدو هذه الصفة متوارية لا يصل إليها القارئ بيسر بل عليه أن يتمعن ويتعمق في الفهم ليصل إلى مراد الشاعر.

وفي معرض الافتخار يذكر حسّان مرافقة جبريل – عليه السلام – للمسلمين في غزواتهم ضد المشركين

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ[27]

ففي مرافقة المَلَك جبريل عزة ومنعة , وهذا الذي عناه الشاعر وذلك عن طريق الكناية. فوجود جبريل مع المسلمين تأييد لهم من المولى (Y)كان هذا التأييد مصدر النصر في كثير من المواقع. وكأن حسّانا يريد أن يقول: أنَّ مرافقة جبريل لهم ليس لها أي نظير ولا كفاء , والمعنى البعيد الذي يقصده هو العزة والمنعة عن طريق **الكناية عن الصفة.**

– ويصف حسّان بن ثابت إصرار قريش على الكفر كلَّما دُعوا إلى الإيمان بالله وتصديق دعوة الرسول (ε) فيقول:

وَقَـــــالَ اللهُ قَـــــدْ أَرْسَـــــلْتُ عَبْـــــدًا يَقُـــولُ الْحَـــقَّ إِنْ نَفَـــعَ الْـــبَلاَءُ

شَـــــهِدْتُ بِـــــهِ فَقُومُـــــوا صَـــــدِّقُوهُ فَقُلْـــــتُمْ لاَ نَقُـــومُ وَلاَ نَشَـــاءُ[28]

ففي رد فعل قريش على دعوة النبي (ε) إلحاح وإصرار على البقاء على الكفر والشرك , ففي قول حسّان: ولا نقوم ولا نشاء ، على لسان قوى الكفر والشرك **كناية عن الصفة** , وهذا هو المعنى البعيد الذي يرومه الشاعر. وقد يبدوا هذا المعنى المجرد مخفيا ثم تمكَّن الشاعر من الوصول إلى إبرازه عن طريق الكناية.

- وفي (الهمزية) نفسها ، يتابع حسّان وصف ما لاقاه المسلمون من إيذاء وعناء من قبل قريش فيقول

لَنَـــا فِـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مِـــنْ مَعَـــدٍّ سِـــبَابٌ أَوْ قِتَـــالٌ أَوْ هِجَـــاءُ[29]

ففي قول الشاعر (ولنا) يعني بها قومه الأنصار , و(معدّ) هم مشركو قريش , ولا يخفى على المتأمل ما في هذه العبارة من صورة كنائية , فالشاعر يريد أن يشير بهذه العبارة إلى صفة مستترة في سياق الكلام وهي (العداوة الشديدة) في قول الشاعر (سباب ، أو قتال أو هجاء)، وذلك عن طريق **الكناية عن الصفة.**

ثم يوجه الشاعر هجاءه " لأبي سفيان بن الحارث " قائلا :

أَلاَ أَبْلِـــغْ أَبَـــا سُـــفْيَانُ عَنِّـــي فَأَنْـــتَ مُجَـــوَّفٌ نَخِـــبٌ هَـــوَاءُ

بِـــأَنَّ سُـــيُوفَنَا تَرَكَتْـــكَ عَبْـــدًا وَعَبْـــدَ الـــدَّارِ سَـــادَتُهَا الْإِمَـــاءُ[30]

فأبوسفيان في تصوير حسّان رجل جبان , لا قلب له , كأنه خالي الجوف , ومثله النخب الهواء ، أي نزع فؤاده من جوفه خوفا وجزعا , وفي ذلك إشارة إلى قوله (Y) في وصف الظالمين ومصيرهم يوم القيامة: **[مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ]**[31]

والمهجو في تصوير الشاعر : عبد ذليل ، مهان محتقر. وحسّان لا يقصد معنى العبودية ، هذا المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن ولكنه يريد إبراز صفة مخفية وراء هذه العبودية وذلك هي : الذل والهوان والاستكانة عن طريق **الكناية عن الصفة.** ولم يكتف سيدنا حسّان (ψ) بهجاء " أبي سفيان بن الحارث" بل تعداه إلى هجاء (عبد الدار) الذين كانت لهم السقاية والحجابة والرفادة ، وهي صور كنائية أخرى ، **كناية عن صفة** الجبن و الضعة وفقدان المروءة. فقد قضى عليهم حسّان حين جعل سادتهم من الإماء وهذه سخرية ما بعدها سخرية.

ومع (الهمزية) دائما يواصل حسّان بن ثابت رده على " أبي سفيان بن الحارث " قائلا :

هَجَـــوْتَ مُبَارَكًـــا بَـــرًّا حَنِيفًـــا أَمِـــينَ اللهِ شِـــيمَتُهُ الْوَفَـــاءُ

فَمَـــنْ يَهْجُـــو رَسُـــولَ اللهِ مِـــنْكُمْ وَيَمْدَحُـــهُ وَيَنْصُـــرُهُ سَـــوَاءٌ[32]

يقول حسّان : ان هجاءك للرسول (ع)لا جدوى منه ، فإنك تعلم أنه مبارك حنيف ، أمين الله من شيمه الوفاء ، وما دام الأمر كذلك فمدحكم ونصرتكم وهجاؤكم له سواء. فهو في غنى عن ذلك لا يضره هجاؤكم ولا ينفعه مدحكم ونصركم ، وذلك لأنكم من الهوان بحيث لا يُؤبه بكم , وهو من العزة والمنعة والوجاهة بحيث لا يُنال منه. و هو المعنى الذي أراده الشاعر عن طريق **الكناية عن الصفة.**

ثم يقول حسّان في فداء عِرض الرسول (ع) ووقايته من أعدائه بعِرض أصول الشاعر

فَـــــإِنَّ أَبِـــــي وَ وَالِـــــدَه وَعِرْضِـــــي لِعِـــــرْضِ مُحَمَّـــــدٍ مِـــــنْكُمْ وِقَـــــاءُ[33]

لقد جعل حسّان عِرضه وعِرض أسلافه فداءً لعِرض الرسول (ع) ، و العِرض – عند العرب– هو موضع المدح والذم من الإنسان ، ولا يخفى ما في ذلك من إشارة إلى المعنى البعيد الذي يعنيه الشاعر وهو حبه للرسول (ع) وذلك عم طريق **الكناية عن الصفة.**

ثم يصف الشاعر استنفار العدو لملاقاة المسلمين ، ومحاولتهم لقتل النبي ، وسلب الغنائم فيقول:

حَتَّـــــى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَـــــةَ وَارْتَجُـــــوا قَتْـــــلَ النَّبِـــــيِّ وَ مَغْـــــنَمِ الأَسْـــــلاَبِ

وَغَـــــدُوا عَلَيْنَـــــا قَـــــادِرِينَ بِأَيْـــــدِيهِم رُدُّوا بِغَـــــيْظِهِم عَلَـــــى الأَعْقَـــــابِ[34]

ففي قوله (وردوا بغيظهم على الأعقاب) وفي بناء الفعل للمجهول دلالة على أن هناك قوة غيبية هي التي كانت سبب في النصر ، وهذا تعبير بياني للإيحاء بشر الهزيمة التي تكبدتها الأحزاب: وهم قريش وغطفان وبنو قريظة الذين تظاهروا و تألبوا على حرب الرسول(ع). فقد كفى الله المؤمنين شر القتال ، ورُدَّت الأحزاب ناكصة على أعقابها تجر ذيول الخيبة والخسران ، وهذا الذي عناه الشاعر بقوله ردوا بغيظهم على الأعقاب وهي **كناية عن صفة** شر الهزيمة التي لحقت بالمشركين وحلفائهم.

فقد وصف الشاعر وأحسن الوصف ، وبيَّن أنَّ هذا النصر المؤزَّر جاء من بعد قنوط المسلمين و يأسهم فقال:

مِـــــنْ بَعْـــــدِ مَـــــا قَنَطُـــــوا فَفَـــــرَّجَ عَـــــنْهُمُ تَنْزِيـــــلُ نَـــــصِّ مَلِيكِنَـــــا الْوَهَّـــــابِ

فَـــــأَقَرَّ عَـــــيْنَ مُحَمَّـــــدٍ وَصِـــــحَابِهِ وَ أَذَلَّ كُـــــلَّ مُكَـــــذِّبٍ مُرْتَـــــابِ[35]

ففي قول حسّان: (فَأَقَرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصِحَابِهِ) وذلك بالنصر على الأعداء وهو بمثابة الطمأنينة للرسول (ع) وأصحابه , فلا تقر العين إلا من الراحة ، وهي **كناية عن صفة.**

وحين يتحدث شاعر الرسول (ع) يصوِّرُ غزواته وحروبه ، وينقل كل صغيرة وكبيرة فيقول في يوم (بدر) :

فَوَافَيْنَـــــاهُمُ مِنَّـــــا بِجَمْـــــعٍ كَأُسْـــــدِ الْغَـــــابِ مُـــــرْدَانٍ وَ شِـــــيبِ[36]

أي وافينا قريشا كالأسود في الشجاعة والإقدام , ولم يتخلف منَّا أحد في هذا اليوم العظيم فخرجنا إليهم على بكرة أبينا , شبابا وشيوخا , ليعبر الشاعر عن صفة الاستنفار والمشاركة الجماعية في الحرب ، ذلك على سبيل **الكناية عن الصفة.**

– وفي يوم (بدر) – دائما – حين ادَّعى المشركون بأنَّ حصونهم محمية , وأنَّ ماء (بدر) غير مورود , يردُّ حسّان عليهم قائلا:

وَقَــــدْ وَرَدْنَــــا وَلَــــمْ نَسْــــمَعْ لِقَــــوْلِكُمْ   حَتَّــــى شَــــرِبْنَا رَوَاءً غَيْــــر تَصْــــرِيدٍ[37]

ففي قول حسّان : (**حَتَّى شَرِبْنَا رَوَاءً غَيْر تَصْرِيـدٍ**) **كناية عن صفة** لما في ذلك من تحدِّي الكفار وهزيمتهم ، فقد تمكّن المسلمون من ورود ماء (بدر) والشرب منه إلى حد الارتواء دون أن يتمكن العدو من منعهم. ولا يخفى ما في ذلك التحدي من كناية عن النصر المبين للمسلمين.

وفي معرض وصف شجاعة الرسول (ع) يوم (بدر) يقول حسّان :

فِينَــــا الرَّسُــــولُ وَ فِينَــــا الُحَــــقُّ نَتْبَعــــهُ   حَتَّــــى الْمَمَــــاتِ وَ نَصْــــرٌ غَيْــــرُ مَحْــــدُودِ

مَــــاضٍ عَلَــــى الْهَــــوْلِ رَكَّــــابٌ لِمَــــا قَطَعُــــوا   إِذَا الْكُمَــــاةُ تَحَــــامُوْا فِــــي الصَّــــنَادِيدِ[38]

فحسّان حين يصف شجاعة الرسول (ع), فإنَّه لا يتوسل في سبيل ذلك الكلام المباشر ، بل عمد إلى المجاز عن طريقة **الكناية عن الصفة** لإبراز هذه الشجاعة, فالرسول (ع) : ماض على الهول. والشجاع المقدام لا يتولى يوم الزحف,وإنما يمضي في غير خوف ولا جزع.

ولم يكتف حسّان بوصف ممدوحه بالشجاعة , لأنها صفة شائعة بين الناس , مسلمهم و كافرهم ولكنه يضيف لها صفات أخرى يقول :

مُبَــــارَكٌ كَضِــــيَاءِ الْبَــــدْرِ صُــــورَتُهُ   مَــــا قَــــالَ كَــــانَ قَضَــــاءً غَيْــــرَ مَــــرْدُود[39]

فالرسول (ع) ، بالإضافة إلى كونه شجاعا , فهو مبارك كالبدر في ضيائه , وقوله من باب القضاء الذي لا يُرد , وذلك إشارة إلى قوله(Y): [**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى , إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**] [40]

والمعنى البعيد الذي يرومه الشاعر من قوله: (ما قال كان قضاء غير مردود) هو إبراز صفة العصمة من الخطأ ,وهي صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وذلك على سبيل المجاز عن طريق **الكناية عن الصفة** .

وفي معرض إبراز خصال الرسول الكريمة و شمائله المحمودة ، يقول حسّان بن ثابت :

وَاللهِ رَبِّــــي لاَ نُفَــــارِقُ مَاجِــــدًا   عَــــفَّ الْخَلِيقَــــةِ مَاجِــــدَ الأَمْجَــــادِ

مُتَكَرِّمًــــا يَــــدْعُو إِلَــــى رَبِّ الْعُلَــــى   بَــــذْلَ النَّصِــــيحَةِ رَافِــــعَ الأَعْمَــــادِ[41]

وهنا تبدو صورة الرسول(ع) من خلال تعبير حسّان : أنه ماجد , عفيف , متكرِّم , داع إلى الله لا يبخل بالنصيحة وأنه رافع الأعماد ، أي أنه شريف النسب لأن العرب تضع البيت موضع الشرف في النسب والحسب. وهذا هو المعنى البعيد الذي أراد الشاعر أن يبرزه وذلك على سبيل المجاز عن طريق **الكناية عن الصفة** .

وعن هذا المعنى , قالت " الخنساء " تصف أخاها " صخرا ":

طَوِيــــلُ النَّجَــــادِ ,رَفِيــــعُ الْعِمَــــادِ   كَثِيــــرُ الرَّمَــــادِ ,إِذَا مَــــا شَــــتَا

وفي هذا البيت ثلاث كنايات عن صفات , فقولها: (طويل النجاد) كناية عن طول القامة والقدرة على القتال , وقولها: (رفيع العماد) كناية عن علو المكانة وشرف النسب , وقولها: (كثير الرماد) كناية عن الكرم والسخاء.

ويمضي حسّان في مدح الرسول (ε) فيقول :

مِثْـــــــلَ الْهِـــــــلاَلِ مُبَارَكًـــــا ذَا رَحْمَـــــــةٍ سَـــــــمْحَ الْخَلِيقَـــــةِ طِيِّـــــبِ الأَعْـــــوَادِ[42]

فالرسول (ε) ، في مدح حسّان : مبارك مثل الهلال , رحيم بأصحابه , سمح الخليقة , طيّب الأعواد , والأعواد في الحقيقة جمع عود , وهو في الأصل خشبة كل شجرة دق أو غلظ , وهذا المعنى لا يريده الشاعر , وإنما أراد أن يبرز صفة في الرسول (ε) وهي : طيب الأرومة , وكرامة الأصل، وذلك على سبيل المجاز عن طريق **الكناية عن الصفة**.

ثم يُقسم الشاعر على الوفاء للرسول (ε) وعلى عدم مفارقة أمره إلى يوم الميعاد فيقول :

وَ اللهِ رَبِّـــــــي لاَ نُفَـــــارِقُ أَمْـــــرَهُ مَـــــا كَـــــانَ عَـــــيْشٌ يُرْتَجَـــــى لِمَعَـــــادِ[43]

ففي قول الشاعر (**مَا كَانَ عَيْشٌ يُرْتَجَى لِمَعَادِ**) **كناية عن صفة** البقاء على دين محمد (ε) إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي معرض الحديث عن خسارة قريش في هجرة الرسول (ε)عنهم , يقول حسّان :

فَيَـــــا لَقُصَـــــيٍّ مَـــــا زَوَى اللهُ عَـــــنْكُمُ بِـــــهِ مِـــــنْ فَخَـــــارٍ لاَ يُبَـــــارَى وَسُـــــؤْدَدِ[44]

ففي قول حسّان (**فَخَارٍ لاَ يُبَارَى وَسُؤْدَدِ**) مجاز عن طريق **الكناية عن الصفة** حيث أراد أن يُبرز صفة قصدها وهي : تقريع قريش وتجريحها لأنها بإيذائها للنبي (ε)ومناصبة العداء له ، مما اضطر إلى الهجرة إلى الأنصار وفي ذلك ضياع للفخار والسُّؤدد.

ويقول أيضا في مدح الرسول (ε) :

نَبِـــــيٌّ يَـــــرَى مَـــــا لاَ يَـــــرَى النَّـــــاسُ حَوْلَـــــهُ وَيَتْلُـــــو كِتَـــــابَ اللهِ فِـــــي كُـــــلِّ مَسْـــــجِدِ

وَ إِنْ قَـــــالَ فِـــــي يَـــــوْمٍ مَقَالَـــــةَ غَائِـــــبٍ فَتَصْـــــديقُهَا فِـــــي الْيَـــــوْمِ أَوْفِـــــي ضُـــــحَى الْغَـــــدِ[45]

فالنبي (ε) أتاه الله من المعجزات حيث أيّده بعلم الغيب , مصداقا لقوله (Y) : [**ذَٰلِكَ مِنَ انْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**...] [46] وقوله (Y) كذلك : [**تِلْكَ مِنَ انْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ , مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا** ...] [47]، فالشاعر يقول إنّ نبي الله إنْ أُخبر بالمغيب يوما فلا بد أن يتحقق ذلك ويَصدُق , وفي هذا التعبير **كناية عن صفة** مخفية يريد أن يبرزها الشاعر ، وهي صفة الاطلاع على الغيب من باب المعجزة التي دعّم بها الله (Y) نبيه الكريم في دعوته.

وفي معرض رد حسّان بن ثابت على الزبرقان بن بدر حين قال له الرسول (ε): قم يا حسّان فأجب الرجل فيما قال , فقال حسّان :

إِنَّ الـــــذَّوَائِبَ مِـــــنْ فِهْـــــرٍ وَإِخْـــــوَتِهِمْ قَـــــدْ بَيَّنُـــــوا سُـــــنَّةً لْلنَّـــــاسِ تُتَّبَـــــعُ

يَرْضَـــــى بِهَـــــا كُـــــلُّ مَـــــنْ كَانَـــــتْ سَـــــرِيرَتُهُ تَقْـــــوَى الإِلَـــــهِ وَبِـــــالأَمْرِ الَّـــــذِي شَـــــرَعُوا

قَـــــوْمٌ إِذَا حَـــــارَبُوا ضَـــــرُّوا عَـــــدُوَّهُمْ أَوْ حَـــــاوَلُوا النَّفْـــــعَ فْـــــي أَشْـــــيَاعِهِمْ نَفَعُـــــوا[48]

إلى أن يقول :

لاَ يَرْقَــعُ النَّــاسُ مَــا أَوْهَــتْ أَكُفُّهُــمُ عِنْــدَ الــدِّفَاعِ وَلاَ يَوْهُــونَ مَــا رَقَعُــوا(49)

ويقول في موضع آخر :

كَــمْ مِــنْ صَــدِيقٍ لَهُــمْ نَــالُوا كَرَامَتَــهُ وَمِــنْ عَــدُوٍّ عَلَــيْهِمْ جَاهِــدٍ جَــدَعُوا(50)

وفي هذه الأبيات من قصيدته العينية التي ردَّ فيها على شعراء الوفود , يفتخر الشاعر بالمهاجرين والأنصار, ويجعلهم في مكانة عالية فهم الأسياد والأشراف وهي **كناية عن صفة** السيادة.

وفي قول حسّان لنا : (إنَّ الذوائب من فهر واخوتهم) افتخار بأصول المهاجرين من قريش فهم من فهر بن غالب بن النضر بن كنانة , وعطف على فهر بإخوتهم وأراد بهم الأنصار , فالشاعر لا ينسى قبيلته فهي ند للمهاجرين. فالمهاجرون والأنصار صاروا بعد مجيء الإسلام أمة واحدة , فهم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهم و هي**كناية عن صفة** القوة والبطش , (أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا)**كناية أخرى عن صفة** وهي كونهم حليفا نافعا لمن حالفهم وتشيع لهم. وفي قوله : (لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم)،**كناية عن صفة** العزة والقوة والمنعة. فهم ينفعون أصدقاءهم ويضرون أعداءهم. وفي قوله: (نالوا كرامته)، فيه قلب أي نال كرامتهم. وفي قوله: (ومن عدو عليهم جاهد جدعوا) ، فأصل الجدع في اللغة : القطع البائن في الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها. ولا يخفى ما في هذا الجدع من إذلال وتحقير , وذلك عن طريق **الكناية عن الصفة**. وهذا المعنى البعيد للجدع ، هو الذي يقصده الشاعر وهو أنَّ أعداء المسلمين هم في حكم العبد الأجدع الذي ثُقبت أذناه للبيع في سوق النخاسة , ولعمري لا يوجد إذلال بعد هذا الإذلال , وقد استطاع الشاعر أن يصوِّر بشاعة مصير الأعداء بعد هزيمتهم , فهم أذلة محتقرون في نكستهم ونكبتهم.

وعن طريق التصوير البياني , يواصل حسّان بن ثابت في مدحته النبوية الافتخار بالصحابة فيقول:

لَنَــا الْقَــدَمُ الأُوْلَــى إِلَيْــكَ وَ خَلْفُنَــا لأَوَّلِنَــا فِــي طَاعَــةِ اللهِ تَــابِعُ(51)

فالصحابة رضوان الله عليهم ومنهم حسّان , لا يتخلفون عن الرسول (ε) وعن نصرته ومؤازرته في الشدائد بل لهم القدم الأولى , هم ونسلهم في ذلك سواء , هم القدوة لخلفهم في طاعة الله ونصرة دينه , والقدم الأولى **كناية عن صفة** السبق في الذود عن الرسول (ε) وحماية دعوته. فالمسلمون مع نبيهم ليسوا كاليهود مع موسى (υ)حين طلب منهم النصرة فكان جوابهم أن قالوا [... **فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**](52)

وفي قصيدته الميمية في مدح الرسول (ε) يقول حسّان بن ثابت :

فَنَــادِ بِمَــا كُنْــتَ أَخْفَيْتَــهُ نِــدَاءً جِهَــارًا وَ لاَ تَكْتَــتِمْ

فَإِنَّــا وَأَوْلاَدَنَــا جُنَّــةٌ نَقِيــكَ وَ فِــي مَالِنَــا فَــاحْتَكِمْ(53)

وفي هذين البيتين , يناشد حسّان النبي (ε) أن يجاهر بالدعوة , وألا يخاف في سبيل ذلك لأن في المسلمين وأولادهم جنة ووقاية له من الأعداء , ولا يخفى ما في ذلك من الولاء المطلق والنصرة الكاملة للرسول (ε), وهذا هو المعنى الذي أراده الشاعر من قوله : (فإنا وأولادنا جنة) وذلك عن طريق **الكناية عن الصفة**.

2 – الكناية عن الموصوف في المدحة النبوية :

لم يكتف حسّان بن ثابت بتوظيف الكناية عن الصفة , وإن كان استعماله لها هو الغالب في المدحة النبوية , بل لجأ كذلك إلى استعمال الكناية عن الموصوف وإن كان بنسبة أقل , إذ أحصيت ما مجموعه عشر صور كناية عن موصوف. ومن أمثلة ذلك يقول حسّان :

فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ[54]

فالشاعر يجعل من القوافي سلاحا فتَّاكا للرَّد على أكاذيب و أراجيف المشركين , ففي القوافي منعة وحماية لأعراضهم , هذا إذا كان المجال مجال كلام , فيكون هجاء بهجاء ، أمَّا حين تستعر نار الحرب , فالضرب أولى, وهذا ما عناه حسّان بقوله ونضرب حين تختلط الدماء فكيف تختلط الدماء ؟ وماذا نفهم من حقيقة هذا التعبير ؟ فحسّان , لم يعبِّر تعبيرا مباشرا ليتحدث عن الحرب , بل وظَّف المجاز عن طريق الكناية , والمعنى الذي يرومه مخفي ومستتر , وهو **كناية عن موصوف** ويريد يوم الحرب.

و يقول حسّان بن ثابت , و هو يصف شِعره بل بالأحرى سلاحه , الذي يدافع به عن الرسول (ε). فقد رُوي عنه أنه لم يشارك في غزوة من الغزوات مع الرسول (ε) واتُّهم بالجبن وقد مرَّ بنا هذا في المدخل:

لِسَانِي صَارِمٌ لاَ عَيْبَ فِيهِ وَ بَحْرِي لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ[55]

لقد بالغ حسّان في وصف شعره الذي لم يذكره صراحة في تعبيره , بل عناه حين شبَّهه بالبحر وذلك عن طريق المجاز في قوله: (وبحري لا تكدره الدلاء) وذلك من خلال مقاربة بين الشعر والبحر , والمعنى البعيد هو أن شعره صاف نقي لا يُنتقد ولا يطعن في جودته ؛ وهي **كناية عن موصوف.**

وفي معرض وصف اجتماع قريش و تألُّبها ضد الرسول (ε) للقضاء عليه وعلى دينه يقول حسّان:

أَمُّوا بِغَزْوِهِمِ الرَّسُولَ وَأَلْبَسُوا أَهْلَ الْقُرَى وَبَوَادِيَ الأَعْرَابِ[56]

والتعبير المجازي عن طريق الكناية في قوله : (أهل القرى وبوادي الأعراب) ويريد من خلال هذا التعبير ضعفة الناس وعامتهم الذين ألَّبتهم قريش ضد النبي (ε) ، على سبيل **الكناية عن موصوف.**

وفي معرض مدح الرسول (ε) ، يجعل حسّان اسم النبي قرينا باسم الله تعالى. إذ جعل الرسول (ε) مذكورا في الآذان مع اسم الجلالة خمس مرات في اليوم وذلك قوله :

وَضَمَّ الإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ[57]

والمقصود بالخمس هي الصلوات الخمس , وهو المعني الذي يريد الشاعر إبرازه عن طريق **الكناية عن موصوف.**

وفي معرض الحديث عن النصر المؤزَّر الذي أعزَّ به الله سبحانه وتعالى شوكة الإسلام , وأذل به الشرك و المشركين يقول حسّان بن ثابت :

بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ[58]

فالنصر من الله وبه , إذ أيد المسلمين بريح معصفة هبت على قريش فأقضت مضجعها ، ولم يقف التأييد عند هذا الحد بل أرسل الله جنودا من عنده وهم الملائكة مصداقا لقوله (Y):**[يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ**

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا , وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا](59) فالشاعر كثيرا ما يقتبس معانيه من القرآن الكريم ، ويوظّفها للتأثير في السامع وإقناعه , ففي قول حسّان بن ثابت (وجنود ربك) **كناية عن موصوف** ، وهم الملائكة الذين أنزلهم الله لإعانة المسلمين ودعم صفوفهم يوم الحرب.

وفي معرض الرد على " الزبرقان بن بدر " يفتخر حسّان بالصحابة رضوان الله عليهم و بجيش المسلمين الذين كانوا القدوة في الولاء للرسول (ε) والانقياد لأوامره , وإظهار الطاعة العمياء له .

يقول حسّان :

أَعْطَـــوْا نَبِـــيَّ الْهُــــدَى وَالْبِـــرِّ طَـــاعَتَهُمْ فَمَـــا وَنَـــا نَصْـــرُهُمْ عَنْـــهُ وَمَـــا نَزَعُـــوا

إِنْ قَـــالَ سِــــيرُوا أَجَــدُّوا السَّـــيْرَ جَهْـــدَهُمُ أَوْ قَـــالَ عُوجُـــوا عَلَيْنَـــا سَـــاعَةً رَبَعُـــوا

مَـــا زَالَ سَـــيْرُهُمْ حَتَّـــى اسْـــتَقَادَ لَهُـــمْ أَهْـــلُ الصَّـــلِيبِ وَ مَـــنْ كَانَـــتْ لَـــهُ الْبِيَـــعُ[60]

فبانقياد المسلمين للرسول (ε) وطاعتهم له , انقادت لهم الدنيا و أظهر الولاء لهم كل من الكفار والنصارى واليهود.

وفي قول حسّان : (أهل الصليب وأهل البيع) إشارة إلى ذلك على سبيل **الكناية عن الموصوف** , فقد كنى حسّان عن النصارى واليهود بأهل الصليب ومن كانت له البيع.

وفي معرض الحديث عن شهداء بدر الذين تذكرهم الشاعر فتأثر لذلك قائلا :

أَلاَ يَـــا لَقَـــوْمٍ هَـــلْ لِمَـــا حُـــمَّ دَافِـــعُ وَهَـــلْ مَـــا مَضَـــى مِـــنْ صَـــالِحِ الْعَـــيْشِ رَاجِـــعُ

تَـــذَكَّرْتُ عَصْـــرًا قَـــدْ مَضَـــى فَتَهَافَتَـــتْ بَنَـــاتُ الْحَشَـــى وَ انْهَـــلَّ مِنِّـــي الْمَـــدَامِعُ

صَـــبَابَةُ وَجْـــدٍ ذَكَّرَتْنِـــي أَحِبَّـــةً وَ قَتْلَـــى مَضَـــوْا فِـــيهِمْ نُفَيْـــعٌ وَرَافِـــعُ[61]

لقد تذكر الشاعر أصحابه الذين مضوا فتأثر لذلك , فجاشت عواطفه , وتحرّكت أشجانه , وتهافتت لذلك بنات الحشا والمعنى البعيد الذي يقصده الشاعر (الهموم والأشجان) التي أثارها التذكار , وحسّان لم يذكر ذلك صراحة بل لجأ إلى أسلوب **الكناية عن الموصوف** , لِما في ذلك من جمال وسحر في تجسيد المعنى المجرد. فالهموم كبنات الحشا أو بنات الصدر , والحشا ما بين آخر الأضلاع إلى رأس الورك ,والمعنى ما اضطمت عليه الضلوع. وأنشد حسّان (ψ) سيدنا رسول الله (ε) فقال :

شَـــــهِدْتُ بِـــــإِذْنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّـــــدًا رَسُـــولُ الَّـــذِي فَـــوْقَ السَّـــمَاوَاتِ مِـــنْ عَـــلُ

وَ أَنَّ أَبَـــا يَحْـــيَ وَ يَحْـــيَ كِلاَهُمَـــا لَـــهُ عَمَـــلٌ فِـــي دِينِـــهِ مُتَقَبَّـــلُ

وَ أَنَّ الَّتِـــي بِـــالْجِزْعِ مِـــنْ بَطْـــنِ نَخْلَـــةٍ وَ مَـــنْ دَانَهَـــا فِـــلٌّ مِـــنَ الْخَيْـــرِ مَعْـــزِلُ[62]

ويقصد حسّان بقوله : (أن التي بالجزع من بطن نخلة) العُزَّى وهو صنم لقريش وبني كنانة , وقوله : من دانها , أي عبدها, وقوله : فل من الخير أي خالية منه. وفي ذلك **كناية عن موصوف** وهو العزى الصنم المعروف , فلم يصرح الشاعر بذكره وإنما كنى عنه بقوله : التي بالجزع من بطن نخلة , وهو موضع بالحجاز بين مكة والطائف. إلى أن يقول :

وَ أَنَّ الَّــــــذِي عَــــــادَ الْيَهُــــــودُ ابْــــــنَ مَــــــرْيَمٍ   رَسُــــولٌ أَتَــــى مِــــنْ عِنْــــدِ ذِي الْعَــــرْشِ مُرْسَــــلُ

وَ إِنَّ أَخَــــــا الأَحْقَــــــافِ إِذْ يَعْذُلُونَــــــهُ   يَقُــــــومُ بِــــــدِينِ اللهِ فِــــــيهِمْ فَيَعْــــــدِلُ[63]

وفي القصيدة ذكر لأنبياء الله ورسله وهم مرسلون , مكلفون بنشر تعاليم الأديان السماوية. ويذكر حسّان : المسيح عيسى بن مريم (υ) والنبي هود الذي لَم يصرّح باسْمه ولكن كنى عنه بـ(أخ الأحقاف) و هي ديار (عاد) , أرض بظاهر بلاد (اليمن)كانت تنزل بها. وذلك عن طريق **الكناية عن موصوف**. وقد اقتبس هذا المعنى من قوله (Y): [**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أنْذَرَ قَوْمَهُ بِالاحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**] [64]

وفي معرض الافتخار بالصحابة– رضوان الله عليهم – وبطاعتهم وولائهم للرسول (ε) يقول الشاعر :

فَلَمَّــــــا أَتَانَــــــا رَسُــــــولُ الْمَلِيــــــكِ   بِــــــالنُّورِ وَ الْحَــــــقِّ بَعْــــــدَ الظُّلَــــــمْ

رَكَنَّــــــا إِلَيْــــــهِ وَلَــــــمْ نَعْصِــــــهِ   غَــــــدَاةَ أَتَانَــــــا مِــــــنْ أَرْضِ الْحَــــــرَمْ

وَ قُلْنَــــــا صَــــــدَقْتَ رَسُــــــولَ الْمَلِيــــــكِ   هَلُــــــمَّ إِلَيْنَــــــا وَفِينَــــــا أَقِــــــمْ[65]

فرسول المليك ,**كناية عن موصوف** وهو الرسول (ε) , فلم يذكر الشاعر صراحة الرسول باسمه وإنما كنى عن ذلك برسول المليك.

3 – الكناية عن النِّسبة :

لقد سبق –وأن أشرت– أن المدحة النبوية عند حسّان خالية من ذكر الكناية عن النسبة. ومن يستقرئ الشعر العربي القديم يكاد يجزم بندرة ورود هذا الصنف من الصورة الكنائية , والمطَّلع على المصنَّفات البلاغية القديمة لا يكاد يعثر إلا على عدة شواهد تمثيلية أوردها البلاغيون منها :

قول الشاعر " زياد الأعجم ":

إِنَّ السَّــــــمَاحَةَ وَالْمُــــــرُوءَةَ وَالنَّــــــدَى   فِــــــي قُبَّــــــةٍ ضُــــــرِبَتْ عَلَــــــى ابْــــــنِ الْحَشْــــــرَجِ

ويعلق الدكتور " صبحي البستاني " على هذا الشاهد البلاغي قائلا :

« إنَّ الكناية عن النسبة هي القسم الوحيد في الكناية الذي يظهر فيه الانحراف في التركيب , ففي قول " زياد الأعجم", تظهر اللاملاءمة بين المبتدأ أو اسم إنَّ (السماحة ...). وبين شبه الجملة (في قبة) حيث لا يبدو منطقيا أن تكون هذه الصفات المعنوية ضُربت على " ابن الحشرج ". فالانحراف في التعبير يؤدي بالضرورة إلى التفتيش عن دلالة جديدة تزيل هذا الانحراف . ومما يلاحظ أن الكناية عن النسبة تكون في مفردة ، بينما تكون كنايات القسمين الأولين عن صفة وعن موصوف في جملة.

لقد ترافق انتقال الدلالة مع عملية انزلاق حدثت بين الألفاظ , ففي بيت زياد انزلقت لفظة ابن الحشرج المقصودة, والتي بها تتم الملاءمة لتحل محلَّها (القبة) التي ضُربت فوقه »[66].

ومن هذا المثال ندرك ، سر جعل "عبد القاهر الجرجاني" هذا القسم من الكناية – الكناية عن النسبة –من دقيق القول ولطيفه , وأنَّ الأدباء حين يذهبون هذا المذهب في إثبات الصفة للموصوف يظهر سحر الكلام وجماله , وتتضح روعة العبارة وبلاغتها. وفي ذلك يقول" عبد القاهر": « **وهذا فن من القول ، دقيق المسلك لطيف المأخذ , وهو أنَّا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية و التعريض , كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب. وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطرف , ودقائق تُعجز الوصف , ورأيت هناك شِعرا شاعرا وسِحرا ساحرا وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المفلق والخطيب المصقع.** » [67]

خامسا:جماليات الصورة الكنائية في المدح النبوي عند حسان بن ثابت:

- إن الكناية كصورة بيانية تعتمد أساسا على التعبير ؛ فكل تعبير من خلال الصورة هو بحد ذاته أبلغ وأجمل من التعبير المباشر , والكناية أبلغ من التصريح , وليس الفن إلا وسيلة للتعبير عن المعنى وليس في المعنى بحد ذاته.

فإذا كانت الكناية مزيَّة عن التصريح فليست تلك المزية في المعنى المُكنَّى عنه , وإنما هي في إثبات ذلك المعنى الذي ثبت له. يقول " عبد القاهر الجرجاني " : « **إذا قلنا : إنَّ الكناية أبلغ من التصريح , أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته , بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشدّ , فليست المزية في قولهم : (جمُّ الرماد) أنه دل على قِرى أكثر بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجابا هو أشد ، وادَّعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق »**[68].

- من محاسن الكناية أن المعنى فيها يستتر ويتوارى داخل صدفة , فلا نصل إليه إلاَّ بعد شقِّها , ومحاولة الإخفاء عبر الكناية ، إنما هو مظهر من مظاهر الفن – كما رأينا سابقا– وكثيرا ما يُؤدِّي هذا الخفاء إلى الغموض الذي يصبح ملمحا جماليا . وقد يلتقي مع ما تنادي به المذاهب الأدبية الحديثة (كالرمزية) مثلا.

ومن أمثلة ذلك من المدحة النبوية عند حسّان بن ثابت قوله في وصف جيش المسلمين يوم بدر :

فَوَافَيْنَاهُمُ مِنَّا بِجَمْعٍ كَأُسْدِ الْغَابِ مُرْدَانٍ وَ شِيبِ[69]

فحسّان بن ثابت يريد أن يبرز صفة من صفات الجيش , فلم يُصرِّح بها ، بل ستر معناها ، وكنى عنها فعدل عن ذكر الصفة ، وهي الاستنفار والمشاركة الجماعية وأتى بلفظ يدلُّ عليها (مردان وشيب) فجمال هذه الصورة الكنائية وبلاغتها ليس في التَّصريح بالمعنى الذي يريده الشاعر , وإنما الجمال كل الجمال في ستره.

وكذا قوله في وصفه للرسول (ع)بالشجاعة:

مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ رَكَّابٌ لِمَا قَطَعُوا إِذَا الْكُمَاةُ تَحَامُوْا فِي الصَّنَادِيدِ[70]

فلم يصرح الشاعر بهذه الصفة (الشجاعة) وإنما عدل عنها وأتى بلفظ يدلُّ عليها وهو قوله : (ماض على الهول) , فستر المعنى المراد وأشار إلى ما يدل عليه , ولا يخفى ما في ستر المعنى من روعة وبيان , والشيء إذ نيل بِتمعُّن وتدبُّر كان أحلى وبالميزة أولى.

- ومن محاسنها أنها تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها .

ومن أمثلة ذلك من المدحة النبوية عند حسّان بن ثابت قوله في مدح بني جفنة من ملوك الغساسنة :

وَكَانَـــــــتْ لا يَـــــــزَالُ بِهَـــــا أَنِـــــيسٌ   خِـــــلالَ مُرُوجِهَـــــا نَعَـــــمٌ وَشَـــــاء(71)

فالشاعر يُصوِّر لنا حقيقة هذه الديار ، كيف كانت قبل أن يحل بها ما حل , وقد أراد أن يثبت للقارئ صفة رغد العيش والرفاه ، لكنه كنى عن هذا المعنى فعدل عنه وأتى بلفظ يدل عليه وهو حركة النعم والشاء التي كانت تجوس خلال المروج. فأتى الشاعر بحقيقة الحال التي كانت عليه ديار بني جفنة , ثم أردفها بدليل

وهو ما كانت عليه من رفاه العيش وخصوبة الكلأ , وحركة النعم والشاء , ولا يخفى ما في هذا التعبير من سحر وبيان.

- ومن محاسن الصورة الكنائية : إثبات المعنى والمبالغة فيه , ومن أمثلة ذلك في المدحة النبوية قول حسّان في وصف الخيل يوم الحرب :

يُبَـــــارِينَ الأعِنَّـــــةَ مُصْـــــعِدَاتٍ   عَلَـــى أَكْتَافِهَـــا الأسَـــلُ الظِّمَـــاءُ(72)

فبدل أن يُصرِّح حسّان بسرعة الخيل لشوقها إلى الحرب , راح يكني عن هذه الصفة , ويعدل عن حقيقة التعبير ، فيأتي بلفظ يدل على هذا المعنى الذي أعرض الشاعر عن ذكره , فالخيل تجاري أعِنَّتها في الجذب لقوة نفوسها , وسلاسة قيادتها , وهذه المبالغة في التعبير تُضفي على المعنى قوة وحسنا وجمالا.

وكذلك قوله مفتخرا بمتانة شعره وتأثيره في الأعداء :

فَـــــنُحْكِمُ بِـــــالْقَوَافِي مَـــــنْ هَجَانَـــــا   وَنَضْـــــرِبُ حِـــــينَ تَخْـــــتَلِطُ الـــــدِّمَاءُ(73)

ولا يخفى ما في هذا التعبير من مبالغة ملحوظة , لقد سوَّى حسّان بين اللسان والسيف , فالقوافي مصدر من مصادر المنعة لا يقل مفعولها عن مفعول الطِّعان بالسيوف والرِّماح يوم الحرب , والشاعر لا يكتفي بذكر القوافي ، فهو يفتخر كذلك بقوة الضربة حين تلتحم الحرب.

وفي معرض الافتخار الذي مبناه على المبالغة يقول حسّان بن ثابت :

قَـــــوْمٌ إِذَا حَـــــارَبُوا ضَـــــرُّوا عَـــــدُوَّهُمْ   أَوْ حَـــــاوَلُوا النَّفْـــــعَ فْـــــي أَشْـــــيَاعِهِمْ نَفَعُـــــوا(74)

فالشاعر يبالغ كثيرا إذا تحدَّث عن قومه , وعن أصول قومه , ويقصد بالقوم هنا : المهاجرين والأنصار وليس قبيلته الصغيرة ، كما كان يفعل في الجاهلية , لقد علَّمه الدين الجديد أن يفتخر بالأمة لا القبيلة , ولقد كان حسّان في فخره ومدحه متأثرا بتعاليم الإسلام التي تدعو إلى الأخوة والاعتصام تحت راية واحدة, هي راية , لا إله إلا الله محمد رسول الله , وبالتالي فنحن نلحظ هذا المنحى الجديد في مدح حسّان بعد إسلامه. فجيش المسلمين في تصوير حسّان ، شديد الضرر لعدوه في الحرب , كثير النفع لحلفائه وأشياعه.

وفي معرض الافتخار بجيش المسلمين يقول حسّان بن ثابت :

سَـــــجِيَّةٌ تِلْـــــكَ مِـــــنْهُمْ غَيْـــــرُ مُحْدَثَـــــةٍ   إِنَّ الْخَلاَئِـــــقَ فَـــــاعْلَمْ شَـــــرُّهَا الْبِـــــدَعُ

لاَ يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ   عِنْـــــدَ الـــــدِّفَاعِ وَلاَ يُوْهُـــــونَ مَـــــا رَقَعُـــــوا(75)

يجعل حسّان بن ثابت من ضرر الأعداء ونفع الأولياء سجية وطبيعة مألوفة في المسلمين ، وليس بدعا فيهم. ويشير علماء البديع أن في هذه الأبيات , التقسيم ثم الجمع , فالتقسيم في قوله :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ   أَوْ حَـــــاوَلُوا النَّفْـــــعَ فْـــــي أَشْـــــيَاعِهِمْ نَفَعُـــــوا

حيث قسَّم في البيت المذكور صفة الممدوحين إلى ضرر الأعداء ونفع الأولياء , ثم جمعهما في البيت التالي في كونهما سجية في قوله :

سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدَعُ

ومحور الأبيات كلها يدور حول صفة العزة والمنعة التي يتصف بها المسلمون , و في ذلك مبالغة من الشاعر . وفي ستر المعنى الذي يرومه الشاعر إثبات للمعنى وتقويته , ودعوة إلى اكتشافه واستنباطه من خلال إعمال الفكر والعقل للوصول إلى كُنهه.

- ومن محاسن الكناية وبلاغتها ، أنها تضع لك المعاني المجردة في صور محسوسة , ولا شكَّ أنَّ هذه خاصية الفنون « **فإنَّ المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس , بهرك , وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه تعبيرا واضحا وملموسا**»[76]، على حد تعبير " علي الجارم " و"مصطفى أمين".

فالتعبير في صورة المحسنات يكشف عن المعاني ويوضحها , ويؤثر تأثيرا طيبا في النفس , ويحدث انفعال الإعجاب بكونه انفعالا تعجز اللغة العادية عن تصويره , لأن الانفعال يقتضي لغة خاصة , وللكناية من الأثر ما للتشبيه والاستعارة من حيث قدرتها على إخراج المعاني صورا محسوسة تزخر بالحياة. ومن أمثلة ذلك قول حسّان بن ثابت في مدح الرسول (ε):

مُتَكَرِّمًا يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعُلَى بَذْلَ النَّصِيحَةِ رَافِعَ الأَعْمَادِ

مِثْلَ الْهِلَالِ مُبَارَكًا ذَا رَحْمَةٍ سَمْحَ الْخَلِيقَةِ طِيِّبَ الأَعْوَادِ[77]

فرافع الأعماد ، وطيِّب الأعواد كنايتان عن الصفة , فالأولى كناية عن شرف النسب والثانية كناية عن طيب الأصل والأرومة. فكلٌ من شرف النسب وطيب الأرومة من المعاني المجرَّدة جعلها حسّان بن ثابت وعن طريق الكناية أشياء محسوسة , فكنى عن شرف النسب برافع الأعماد ، وكنى عن طيب الأرومة بطيب الأعواد.

فقد تمكن الشاعر من إبراز الأشياء المعنوية في صورة مادية محسوسة , ولا يخفى ما في ذلك من أُنس للنفس بالمدركات الحسية ، وهو أعظم من أنسها بالمدركات المعنوية , وذلك لأن الحِسّ هو الطريق الأول لإدراك النفس ومعرفتها.

ومن أمثلة ذلك قول حسّان بن ثابت في معرض وصف حاله حين تذكر شهداء بدر فتأثر لذلك :

تَذَكَّرْتُ عَصْرًا قَدْ مَضَى فَتَهَافَتَتْ بَنَاتُ الْحَشَى وَانْهَلَّ مِنِّي الْمَدَامِعُ[78]

فلفظ الكناية هنا في هذا البيت ، هو (بنات الحشا) كناية عن موصوف وهو الصَّدر , وبنات الحشا كبنات الصدر , والصدر هو مصدر الهموم التي عاناها الشاعر وكنى عنها ببنات الحشى.

ومن محاسنها كذلك ، أنها قد تأتي للَّنيل من الخصم والنكاية به وإذلاله وتحقيره. ومن أمثلة ذلك ما ورد في هجاء " أبي سفيان بن الحارث " من قول حسّان :

بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا وَعَبْدَ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ[79]

والمتمعن في هذا البيت يجد أن الشاعر قد أخفى المعنى الذي أراده , وقد تعمَّد ستره لأن ذلك يجعل المعنى أوقع في النفس , والصورة أقدر على إحداث الاستجابة المناسبة , وذلك لأن الشيء إذا كان مخفيا غير مصرح به تصريحا مباشرا تحرَّكت النفس لطلبه.

والمتلقي حينما يريد أن يتعرف على هذا المعنى المتواري البعيد في الصورة الكنائية , لا ينتقل ذهنه إليه مباشرة , وإنما يحتاج إلى شيء من الروية وإعمال العقل.

- لقد وفرت الكناية لحسّان بن ثابت السبيل لإشفاء غليل نفسه ، والنيل من خصمه , " فأبو سفيان " – في تصوير حسّان – ذليل ، محتقر ، وحلفاؤه من بني عبد الدار عبيد تسودهم الإماء , فقد صور حسّان خصمه ، ثم حلفاء خصمه، في صورة شنيعة لا يتمنى أحد أن يكون مثلهم.

ثم يبالغ حسّان في النكاية بقريش وتوبيخهم فيقول في موضع آخر من قصيدته الهمزية في مدح الرسول (ε):

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ   وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ(80)

فحسّان لا يولي أي أهمية لهجاء قريش للرسول (ε) ولا كذلك لمدحهم إيَّاه , فلا هجاؤهم يضر ولا مدحهم ينفع , وقد سوَّى الشاعر بين هجاء قريش ومدحهم لأنهم من الهوان والذل بحيث لا يؤبه لهم , وهو من العزة والمنعة بحيث لا يُنال منه ، وهذا هو المعنى الذي أراده الشاعر ، وفيه تحقير و إذلال وتقريع " لأبي سفيان بن الحارث " ولقريش عامة.

ويحتقر حسّان بن ثابت جيش قريش الذي قصدوا به غزو المسلمين , بإنه جيش من ضعفة الناس ورعاعهم فيقول :

أَمُّوا بِغَزْوِهِمِ الرَّسُولَ وَأَلْبَسُوا   أَهْلَ الْقُرَى وَبَوَادِيَ الأَعْرَابِ(81)

فبالرغم من تأليب قريش لأهل القرى وبوادي الأعراب لمحاربة الرسول (ε) وغزو المسلمين , إلا أن حسّانا – وعن طريق الكناية – قلَّل من شأن قوة قريش وبطشها إذ جعل تركيبة هذا الجيش من عامة الناس وضعفتهم الذين لا علم لهم بالحرب , وهذا تحقير وإهانة ما بعدها إهانة , وهذا الأسلوب من الكناية فيه تأثير على الخصم وعلى معنوياته.

وفي معرض حديث حسّان بن ثابت عن صفات الصحابة يقول :

إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقونَ بَعْدَهُمُ   فَكُلُّ سَبْقٍ لأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ

وَلاَ يَضُنُّونَ عَنْ مَوْلَى بِفَضْلِهِمِ   وَ لاَ يُصِيبُهُمُ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ

لاَ يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلْتَ جَهْلَهُمُ   فِي فَضْلِ أَحْلاَمِهِمْ عَنْ ذَاكَ مُتَّسَعُ

أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عِفَّتُهُمْ   لاَ يَطْبَعُونَ وَ لاَ يُزْرِيهُمُ الطَّمَعُ

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُمْ نَالُوا كَرَامَتَهُ   وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ جَاهِدٍ جَدَعُوا(82)

لقد أفاض حسّان في ذكر صفات الصحابة , فمدحهم فأحسن مدحهم ، إذ جعلهم من خيار الناس , فهم القدوة والأُسوة في كلِّ خير ، وهم كرماء وأسخياء لا يعرف البخل إلى نفوسهم سبيلا , وليس في طبعهم الطمع , لا يجهلون حتى وإن حاولت استجهالهم , وإنَّ عقولهم أسمى وأرحب من أن تسف إلى الجهل, وهم أعفة وعفتهم مذكورة بنص الوحي، بالإضافة إلى ذلك كله فهم لا يفعلون ما يدنِّسهم , ولا يطمعون طمعا يُودِي بهم إلى الهلاك.

فهذه صورة جميلة رائعة لأخلاق الصحابة ومن كان معهم , ثم يذكر الشاعر صورة مقابلة لها , عن طريق الكناية ليصل بها ومن خلالها إلى صورة الأعداء ليجعلها في الدرك الأسفل من الذل والمهانة , وتبدو صورة المشركين أكثر ارتكاسا وانتكاسا في نظر الشاعر , وهم مهانون من قبل المسلمين إلى حد وصفهم بحال العبيد الذين ثقبت آذانهم وأنوفهم وشفاههم ، وهم معروضون في سوق النِّخاسة. لقد تمكن الشاعر من رسم صورة مستقبحة لمشركي قريش ، أعانه على ذلك أسلوب الكناية بما مهَّد له من تعريض وتلميح إلى المعنى الذي يقصده ويتوخَّاه.

- ومن أغراض الكناية , التلميح والإشارة , ومن أمثلة ذلك في المدحة النبوية قول حسّان بن ثابت ينشد الرسول (ε):

شَـــــــهِدْتُ بِـــــــإِذْنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّـــــــدًا رَسُـــولُ الَّـــذِي فَـــوْقَ السَّـــمَاوَاتِ مِـــنْ عَـــلُ

وَ أَنَّ أَبَـــا يَحْـــيَ وَ يَحْـــيَ كِلاَهُمَـــا لَـــهُ عَمَـــلٌ فِـــي دِينِـــهِ مُتَقَبَّـــلُ

وَ أَنَّ الَّتِـــي بِـــالْجِزْعِ مِـــنْ بَطْـــنِ نَخْلَـــةٍ وَ مَـــنْ دَانَهَـــا فِـــلٌّ مِـــنَ الْخَيْـــرِ مَعْـــزِل[83]

فالشاعر يشير ويُلمِّح إلى عبادة (قريش) للأصنام والأوثان , ويُخصص بالإشارة إلى التي (بالجزع من بطن نخلة) ويريد العُزَّى وهو ثالث ثلاثة أصنام كانت محل تقديس وعبادة من قبل مشركي قريش وهي : (اللاَّت والعزى ومناة). وبطن نخلة : موضع بالحجاز بين مكة والطائف. وجزع القوم محلتهم , وحسّان حين ذكر التي بالجزع ، أراد الذين يعبدونها ويقدسونها , وقوله : فل من الخير أي خاليه منه , وفي ذلك إشارة وتلميح إلى خيبة قريش وبوار سعيها في عبادة الأوثان و ترك عبادة الرحمن.

الهوامش :

(1) – الفيروز ابادي : القاموس المحيط مادة (كنى) – طبع دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت / 1983

(2) – جبور عبد النور : المعجم الأدبي – ص 223

(3) – ابن رشيق : العمدة ، 266/1

(4) – سورة : النجم ، الآية : 16

(5) – أبو هلال العسكري : الصناعتين – ص 383

(6) – سورة : القارعة ، الآيتان : 1 – 2

(7) – سورة : طه ، الآية : 78

(8) – ابن رشيق : العمدة ، 277/1 (بتصرّف)

(9) – المرجع السابق : 277/1

(10) – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز – ص 52

(11) – المرجع السابق نفسه : ص- 207

(12) – المرجع السابق : ص - 207

(13) – المرجع نفسه : ص- 237

(14) – المرجع نفسه : ص- 239

(15) – فايز الداية : جماليات الأسلوب – ص 141 - 143

(16) – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز – تحقيق رضوان الداية وفايز الداية – مكتبة سعد الدين – دمشق - ط2 – 1985 – ص 258.

(17) - بدوي طبانة : علم البيان – دار الثقافة – بيروت – د.ت. – ص 220-221.

(18) - المرجع السابق نفسه – ص 221.

(19) - غازي يموت : علم أساليب البيان – ص 307.

(20) - مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب – دار الكتاب العربي – بيروت – ط 2 – 1974 – 400/3

(21) - فايز الداية : جماليات الأسلوب - ص 153

(22) - صبحي البستاني : الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – ص 165

(23) - المرجع السابق نفسه : ص 168

(24) - البيتان : 02 – 03 ، الديوان : ص 58

(25) - الأبيات 5-8، الديوان : ص 59

(26) - البيت : 12 ، الديوان : ص 60

(27) - البيت : 16 ، الديوان : ص 62

(28) - البيتان : 17 – 18 ، الديوان : ص 62

(29) - البيت : 20 ، الديوان : ص 62

(30) - البيتان : 22 – 23 ، الديوان : ص 63

(31) - سورة : إبراهيم ، الآية : 43

(32) - البيتان : 26 – 27 ، الديوان : ص 64

(33) - البيت : 28 ، الديوان : 65

(34) - البيتان : 41 – 42 ، الديوان : ص 68

(35) - البيتان : 45 – 46 ، الديوان : ص 69

(36) - البيت : 56 ، الديوان : ص 72

(37) - البيت : 77 ، الديوان : 136

(38) - البيتان 79-80، الديوان : 137

(39) - البيت : 82 ، الديوان : 137

(40) - سورة : النجم ، الآيتان : 3 - 4

(41) - البيتان 83-84، الديوان : 137

(42) - البيت : 85 ، الديوان : 138

(43) - البيت : 87 ، الديوان : 138

(44) - البيت : 91 ، الديوان : 143

(45) - البيتان 101-102،الديوان:144

(46) - سورة : آل عمران ، الآية : 44

(47) - سورة : هود ، الآية : 49

(48) - الأبيات : 104, 105, 106 ، الديوان : 304

(49) - البيت : 108 ، الديوان : 304

(50) - البيت : 113، الديوان : 305.

(51) - البيت : 130 ، الديوان : 310

(52) - سورة : المائدة ، الآية : 24

(53) - البيتان: 144-145، الديوان : 431.

(54) - البيت : 21 ، الديوان : 62

(55) - البيت : 32 ، الديوان : 66

(56) - البيت : 39 ، الديوان : 67

(57) - البيت : 66 ، الديوان : 134

(58) - البيت : 43 ، الديوان : 68

(59) - سورة : الأحزاب ، الآية : 9

(60) - الأبيات : 114-115-116، الديوان : 306.

(61) - الأبيات : 121-122-123- الديوان : 309.

(62) - الأبيات : 132-133-134 ، الديوان : 375.

(63) - الأبيات : 104, 105, 106 ، الديوان : 304

(64) - سورة : الأحقاف ، الآية : 21

(65) - الأبيات : 140-141-142، الديوان : 431

(66) - صبحي البستاني : الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – ص 164 - 166

(67) - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز – ص 296

(68) - المرجع نفسه : ص - 56

(69) - البيت : 56 ، الديوان : ص 72

(70) - البيت : 80 ، الديوان : 137

(71) - البيت : 03 ، الديوان : 58

(72) - البيت : 12 ، الديوان : 60

(73) - البيت : 21 ، الديوان : 62.

(74) - البيت : 106 ، الديوان : 304

(75) - البيتان : 107 -108، الديوان : 304.

(76) - علي الجارم ومصطفى أمين : البلاغة الواضحة مع دليلها – ديوان المطبوعات الجامعية – وهران – د.ت.

(77) - البيتان : 84-85 ، الديوان : 137-138.

(78) - البيت : 122 ، الديوان : 309

(79) - البيت : 23 ، الديوان : 63

(80) - البيت : 27 ، الديوان : 64

(81) - البيت : 39 ، الديوان : 67

(82) - الأبيات : 109-110-111-112-113، الديوان : 305.

(83) - البيت : 137-138-139 ، الديوان : 305.